٣ ـ الرسالة الثالثة

أثر التجديد في الجزائر

بقلم

د. عبد الحليم عويس

المستشار بالجامعة الأزهرية

القاهرة ـ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة :

من الحقائق المقررة من (قضايا الحضارة) أنها لا تخضع لذلك الوضع الحاسم الذي تخضع له قضايا التاريخ.

فبينما يستطيع المؤرخ ـ بأدوات البحث المعتمدة ـ أن يصل إلى تحديد قريب من الصحة لكل واقعة تاريخية يدور بحثه حولها. . فإن الباحث في الحضارة لا يستطيع أن يصل إلى هذا الحد الواضح، وهو يعالج القضايا الحضارية؛ ولاسيما إذا كان الأمر متعلقاً بعلاقة (التأثير والتأثر) التي تربط موجة فكرية سابقة، بموجة أخرى لاحقة.

وحسبُ (عالِم الحضارة) في هذا المجال أن يرصد السمات التي تميزت بها كل موجة؛ ثم يبحث ـ مستعيناً بالتاريخ ـ عن المعابر التي التقت عندها الموجتان، بحيث يقنع

قارئه بخلو استنتاجاته من التكلف والتعسف ويضع يده على الخيوط المرئية والمستنتجة التي جعلته يقرر أن هناك تأثيراً وتأثراً بين السابق واللاحق.

حقائق تاريخية ثلاث:

وفي مقدمة بحثنا هذا نستطيع أن نضع أيدينا على ثلاث **حقائق تاريخية مؤكدة:**

أولاها: تظهر على الطرف الأول «المؤثر» وهي أن مصلحاً مجدّداً قد ظهر في جزيرة العرب، على فترة من الجاهلية المستأنفة. ولد بالعيينة شمال غربي الرياض سنة ١١١٥هـ (١٧٠٣م) واسمه محمد، واسم أبيه عبدالوهاب، مجمع على مزاياه الموروثة والمكتسبة، وعلى خلائقه الفاضلة[1]، «وكان محمد هذا سباقاً في عقله وفي جسمه، حاد المزاج، فقد استظهر القرآن قبل بلوغه العشر، وبلغ الاحتلام قبل اتمام

---

(١) أحمد عبدالغفور العطار: محمد بن عبدالوهاب ط٣ ـ مكتبة العرفان بيروت ص ٣١.

الاثنتي عشرة سنة»[1]. . !!

وقد عاش محمد بن عبدالوهاب ـ موضوع الحقيقة التاريخية الأولى ـ حياة حافلة بالتعلم والارتحال في طلب العلم، والجهاد في سبيل ما اهتدى إليه من حقائق رأى فيها صلاح حال الأمة الإسلامية، وسبيل عودتها إلى مكانتها التاريخية. . حتى وافته منيته سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) بعد أن شهد آثار إصلاحه في الجزيرة العربية، وبعد أن انتقل البدو ـ أمام عينه ـ من حياة الجاهلية إلى حياة الحاضرة، وأنارت نجد والجزيرة العربية بدعوته العظيمة[2].

والحقيقة التاريخية الثانية: حقيقة تظهر على الطرف الآخر «جانب التأثر»، ونحن نرى هذه الحقيقة في تلك الموجات الإصلاحية الإسلامية التي بزغت في أرض الجزائر؛ والتي بدأت تأخذ صفة تيار عام بعد أن كانت جهوداً فردية، وقد ظل

---

(١) أحمد بن حجر الطامي: الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ ١٣٩٥ ص ١٥.

(٢) أحمد عبدالغفور العطار: محمد بن عبدالوهاب ١٠١.

هذا التيار العام ينمو حتى أصبح يمثل أقوى تيار في الجزائر، بحيث تمكن هذا التيار (السلفي) الذي كان مجرد جهود فردية من أن يتغلب على كل التيارات المنحرفة، ويتغلب على الاستعمار الفرنسي نفسه، ويعود بالجزائر إلى الإسلام عقيدة وإلى العروبة لغة. . . . وليس هذا التيار سوى (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) صاحبة الفضل الأكبر في تحقيق استقلال الجزائر [بعد الله تعالى].

وتأتي **الحقيقة الثالثة**: وهي حقيقة تتعلق بالظروف المتشابهة في النواحي العقدية والاجتماعية والفكرية في كلتا المنطقتين. . فبينما كانت الجزيرة العربية ـ خلال القرن الذي ظهرت فيه حركة الإمام ابن عبدالوهاب، كما يحدثنا مؤرخونا الثقات كابن بشر وابن غنام والألوسي مرتعاً للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصحيحة. . ويُحج فيها إلى القبور، ويُطلب من الموتى الحاجات، ويستغاث بهم لدفع الكروب[1]. . وفي المقابل. . كانت الجزائر خلال العصر

(١) انظر الشيخ محمد بن عبدالوهاب: أحمد أبو طامي ص ١٩ (نقلاً عنه).

الـذي بدأت تظهـر فيه اشعاعات حركة الإمام ابن عبدالوهاب خارج الجـزيرة، أي خلال القـرنين الثالث عشر والرابع عشر، تعج بكثير من الخرافات وصور الوثنية وسيطرة الصوفية والمبتدعة على أرضها.

إنهـا ظروف متشابهة بين أرض الجزيرة في آسيا، وأرض الجـزائـر في أفـريقيا. . . . وكمـا كانت صور الوثنية والتخلف والـظلام سبباً في كثير من مراحـل التـاريخ. . لظهور دعوات التنوير والتوحيد؛ كذلك كانت هذه الظروف داعية لكي تتلقف الأرض العـطشى في الجـزائـر دعوة الإصلاح التي جاءتها من أرض الجزيرة العربية. لتردها إلى الكتاب والسنة مرة ثانية، كما حملتها إليها أول مرة.

* * *

أجل. . تلك حقائق تاريخية ثلاث لا يكاد المؤرخ يصل إلى درجـة من الشـك فيها؛ لكن هذه الحقائق ـ مع ذلك ـ لا تكفي (الباحث الحضاري) الذي يناط به بيان مدى الإشعاعات الـظاهـرة (المؤثـرة) في الموجة (المتأثرة)، لكي يصدر حكمه

بوجود علاقة (التأثير والتأثر)؛ بل إنه مضطر أن ينهج منهج (عالِم الاجتماع) الذي يجمع مفردات الظاهرة من حالات التوافق والتقارب المتناثرة هنا وهناك ليصدر ـ بعدها ـ رأيه . . راجياً في النهاية أن تكون النتائج التي انتهى إليها أقرب إلى اليقين. وهذا ما نأمله بإذن الله.

عصر الإصلاح في الجزيرة العربية:

كان القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر [الميلادي] هو بداية عصر الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وفي هذا القرن كان العالم الإسلامي يسير على النهج نفسه الذي سار عليه في سابقة من انفصال عن الحقيقة الشرعية، ومن سيطرة مفاهيم [خاطئة] على العقل المسلم، ومن تمزق سياسي وفوضى اقتصادية وهبوط اجتماعي. بحيث أصبح ـ كما يسميه المفكر الجزائري مالك بن نبي ـ في حالة (القابلية للاستعمار)[1]. . . . إنها الحالة التي يتوافر فيها مواد

(١) انظر شروط النهضة فصل (معامل القابلية للاستعمار) ص ٢٢٩

خام بشرية تمتاز (بالبطالة) و(بالجهل) و(بالانحطاط الخلقي) المتولد من انحطاطين: أحدهما: فكري، والآخر نفسي...

ويصور هذه الحالة أبلغ تصوير الكاتب الأمريكي (لثروب ستودارد) فيقول: «في القرن الثامن عشر كان العالم المسلم قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركه؛ فاربد جوُّه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي واستغرقت الأمم المسلمة في اتباع الأهواء والشهوات وماتت الفضيلة في الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال[1]..

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء، فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عدد

الطبعة الثالثة.

(١) حاضر العالم الإسلامي جـ١ ص ٢٥٩.

الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم لتمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغّبون في الحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يُشرب الخمر والأفيون في كل مكان، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، ونال مكة والمدينة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضرباً من المستهزئات. وعلى الجملة بُذِّل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان [يدعى] الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان[1]».

ونتيجة لهذه الحالة سيطر الضعف الحضاري والتفكك السياسي، بحيث لم ينته القرن إلا وكان الاستعمار يبحر بسفنه

---

(١) المرجع السابق ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

في طريقه إلى تلك المنطقة التي توافر لديها ([مرض] القابلية للاستعمار).

كانت روسيا تتقدم إلى العالم المسلم من أركان مختلفة، فقد زحفت على بلاد فارس، التي كانت مقسمة إلى أحزاب هي (الأفشار والزند والقاجار)، كما زحفت روسيا أيضاً على بعض أملاك الدولة العثمانية في أوروبا، ولم يقتصر زحفها على هذين الركنين؛ بل انها أخضعت سهوب (الشركس) فعزلت خانيات التركستان المسلمة وما وراء النهر، وخراسان الأوزبكية، واحتلت بلاد الكرج (جورجيا) متقدمة إلى ما وراء القوقاز.

واستولت على جميع أملاك الترك شرق الدنيستر[1].

أما فرنسا وبريطانيا فقد بدءا في هذا القرن سباقهما لتقسيم العالم المسلم الذي أصبح يمثل (الرجل المريض)..

وكانت الشرارة الأولى هي: الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م. وهجوم نابليون بونابرت ـ قائد الحملة ـ على

---

(١) أطلس العالم الإسلامي ص ٢٨.

الشام سنة ١٧٩٩م واستيلائه على يافا.

دعوة الشيخ ابن عبدالوهاب وركائزها:

في هذه الظروف ظهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، فكان أول مصلح خلال هذا العصر يضع يده على مواطن الداء الحقيقي، الذي يتمثل في طبيعة ما آل إليه بناء الأمة الداخلي فكرياً وعقدياً ونفسياً.. فبينما كان العالم المسلم مستغرقاً في هجعته ومدلجاً في ظلمته على النحو الذي صوره «ستودارد».. إذ بصوت ابن عبدالوهاب يدوي موقظاً النائمين، داعياً المسلمين إلى الرجوع إلى سواء السبيل.. فلم تلبث دعوته أن اتقدت واشتعلت واندلعت ألسنتها في كل زاوية من زوايا العالم المسلم، ثم أخذ يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة مجد الإسلام القديم والعز التليد، فتبدت تباشير صبح الإصلاح، ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الإسلام[1]... **ولم تكن دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب إلا دعوة إلى العودة الصادقة الواعية إلى الحقيقة الشرعية في**

---

(١) ستودارد: المرجع السابق ص ٢٦٠.

مصدريها الثابتين الخالدين: الكتاب، والسنة الشريفة، ودعوة ـ في نفس الوقت ـ إلى التخلص مما خلفته قرون التخلف من شوائب أصابت بناء الإنسان المسلم الداخلي . . فأصبح مسلماً (مشركاً) (يقرأ القرآن ويؤمن بالخرافات) (ويصلي لله، ويتقرب لعبيده) إلى غير ذلك من الشوائب التي كانت سبباً في انحطاط المسلمين.

وبالتالي، وانطلاقاً من نواحي هذا الخلل، ركز محمد بن عبدالوهاب اهتماماته الإصلاحية على النواحي التالية:

أولاً: تصحيح العقيدة الإيمانية في فكر المسلمين وتطهيرها من مظاهر الشرك التي علقت بها، وبإيجاز: إعادة المسلمين إلى عقيدة (التوحيد) كما وردت في الكتاب والسنة دون تشبيه أو تجسيم أو تأويل أو تعطيل والتوحيد لا يكون كذلك ـ في الإسلام ـ إلا بتوحيد الربوبية، فلا خالق ولا رازق إلا الله، وبتوحيد الألوهية، فلا دعاء ولا نذر ولا استعانة إلا بالله، وبتوحيد الأسماء والصفات، فيوصف الله بما وصف به نفسه، واعتقاد أن الله (ليس كمثله شيء). وقد بلغ من عناية الشيخ بالعقيدة حداً كبيراً لدرجة

أنه قام بتتبع مجالات تصحيحها، ومقاومة صور الإشراك في كل كتاباته وخطبه ورسائله. وكانت العقيدة هي المحور الذي تدور حوله كل اهتماماته، وذلك بالإضافة إلى الكتب والرسائل التي تكاد تفرد لقضية التوحيد ككتابه (التوحيد) الذي جاء في ستة وستين باباً.. سد فيها الشيخ كل منافذ الشرك. ورسالة (كشف الشبهات)، ورسالة (ثلاثة الأصول) ورسالة (القواعد الأربع) وكتاب (فضل الإسلام) وكتاب (أصول الإيمان) ومجموعة رسائله في التوحيد والإيمان التي بلغت ثلاث عشرة رسالة، وكتاب الكبائر، ورسائله الاحدى وخمسين التي وردت في تاريخ الشيخ ابن غنام الأحسائي، وفي الدرر السنية في الأجوبة النجدية.... والتي تناولت جوانب خمسة تتصل كلها بالعقيدة، كبيان أنواع التوحيد، وبيان معنى لا إله إلا الله، وما يناقضها من الشرك، والأشياء التي يكفر مرتكبها[1].

---

(١) انظر هذه الرسائل في (القسم الخاص للرسائل الشخصية) من مؤلفات محمد بن عبدالوهاب ـ طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وانظر كذلك بقية أعمال الشيخ في هذه الطبعة.

ثانياً: تصحيح عقيدة المسلمين ـ أيضاً ـ في مجالات التوسل والشفاعة والاستغاثة.

ثالثاً: رفض الانحرافات التي أقحمت على الإسلام بتأثير جماعة (الصوفية) التي كانت من أقوى أسباب تخلف العالم المسلم.

رابعاً: انكار [تعظيم] القبور والبناء عليها أو اللجوء إلى الموتى ـ مهما كان قدرهم ـ في تحقيق أمر.. لأن هذا وثنية تدخل في باب الشرك بالله. أما زيارة القبور دون شد الرحال إلى مقبرة خاصة.. بهدف التذكر والاعتبار والدعاء للميت والترحم عليه فلا شيء فيه، [بل هو من السّنّة].

خامساً: مقاومة الخرافات والبدع بكل أشكالها، وأغلبها مما انتشر أيام الفاطميين في المغرب (٢٩٨ ـ ٣٦١هـ) ومصر (٣٦١ ـ ٥٦٧هـ)، ومن رواسب عصور التخلف. ومن هذه البدع التي أنكرها الشيخ: بدعة الاحتفال بالمولد النبوي، وبدعة المحمل، وغيرها من البدع التي روَّجها

الطرقية والشيعة.

سادساً: فتح باب الاجتهاد ـ عند توافر وسائله ـ وعدم التعصب لمذهب معين، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة.

سابعاً: ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإحياء فريضة الجهاد التي خمدت في نفوس المسلمين.

* * *

تلك هي أبرز الجوانب التي ركز الشيخ ابن عبدالوهاب عليها.. باعتبارها الأصول التي تحيا بحياتها بقية أركان الإسلام وآدابه وفروعه.

وقد حرصنا على ذكرها لتكون الأصل الذي يُقارن به اتجاه الحركة الدينيّة الإصلاحية في الجزائر.

جذور دعوة الإصلاح الدّيني في الجزائر:

ذكرنا أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لا تزيد عن

كونهـا دعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء في القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فهي بهذا الإطار ليست بدْعاً في كل حركات الإصـلاح؛ بل هي تلميذة ومتبعة لحركات الإصلاح السابقة، كحـركـة الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) وحركة شيخ الإســلام أحمــد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) ومحمـد بن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ).

وبـالتـالي: فإن لنـا أن نستنتـج أن كل مورثـات الإسلام الصحيح الـذي يطلق عليه ـ عادة ـ (الاتجاه السلفي) ـ والتي كان لها بالتأكيد ـ وجود كبير في الجزائر منذ دخل جيش التابعين الذي فتحها بقيادة أبي المهاجر دينار (٥٥ ـ ٦٣هـ).

. . . هذه المورثات النبوية الصحيحة قامت بدور كبير في التمهيد لانتشار **دعوة الإصلاح الديني في الجزائر خلال القرن الـرابـع عشـر للهجـرة، والتي كان رائـدها الأول في التاريخ الإسلامي الحديث هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب.**

ويلخص أحـد الكتاب الجزائريين المعاصرين ـ صادقاً ـ حقيقة (الدعوة السلفية) فيقول: إنها لا تزيد عن كونها التطبيق

الصحيح للحديث النبوي الشريف الذي ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام ـ في خطبة الوداع ـ حين قال: «**تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنّة رسوله**»[1].

ويرى هذا الكاتب الجزائري: أن (السلفية) بهذا المعنى ذات امتداد أصيل في الجزائر، وأنها ما كان لها أن تظهر حركة مستقلة تبدو وكأنها (مذهب فقهي) إلا لأن الناس ابتعدوا عن حقيقة الإسلام، بعد أن ظهرت مختلف المذاهب البدعية التي تنتمي إلى ملل ونحل بعيدة عن الإسلام، والتي كان من بينها مذهب التصوف، الذي أسرف بعض أئمته وتغالوا في الدعوة إلى التحرر من [التعاليم] وإسقاط التكاليف. وزاد الأمر تعكراً عندما ظهرت لكثير من أئمة التصوف طرق، أقبل عليها كثير من العوام؛ فعندئذ ظهر رد فعل الفقهاء الذين ضاقوا ذرعاً [بهذا الانحراف] وانضم إليهم المحدِّثون... فاتهموا المتصوفة

---

(١) المهدي البوعبدلي مقال (عبدالرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر) بمجلة الأصالة الجزائرية عدد صفر ١٣٩٨هـ (برقم ٥٣).

بالمروق عن الدين، وبأن تعاليمهم مستمدة من مذاهب غير [شرعية] [1].

مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لكن السؤال الذي يفرض نفسه ـ عند هذه النقطة، على الرغم من كل التأثيرات العامة والأساسية التي ذكرناها ـ هو: كيف وصلت السلفية الإصلاحية التي قامت حركتها الأخيرة على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: الشيخ عبدالحميد بن باديس؟ والحقيقة أن كثيراً من تلامذة جمعية العلماء الجزائريين يسجلون انتماء الشيخ ابن باديس إلى مدرسة الإمام محمد بن عبدالوهاب بشيء من التلقائية، وكأنه أمر مقرر لا جدال فيه [2] والأمر نفسه بالنسبة للمؤرخين [3].

---

(١) المكان السابق.

(٢) انظر كتاب د. عمار طالبي: (ابن باديس حياته وتراثه)، وكتاب د. تركي رابح عن ابن باديس، وغيرهما.

(٣) راجع نقولنا السابقة من ستودارد وارنولد.

لكننـا مع ذلـك نؤثـر تتبـع وصـول السلفية إلى الجمعية وروادهـا عبـر جداولها الخاصة إلى جانب الروافد العامة التي تحدثنا عنها.

والمعروف أن الشيخ عبدالحميد بن باديس قد تأثر أول ما تأثر بالفكرة السلفية عن طريق اساتذته في جامعة الزيتونة بتونس وذلـك بعـد سفـره إلى تونس سنة ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) لإتمام دراسته في جامع الزيتونة.

وأبز من أخذ عنهم الفكرة السلفية من استاذة الزيتونة اثنان همـا: الشيخ محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة ١٩٢٤م، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور. وقد أشار ابن باديس نفسه إلى تأثير هذين الشخصين عليه في مقال كتبه في جريدة البصائر عام ١٩٣٦م فقـال: «عـرفت الأستـاذ الطاهر بن عاشور في جامع الـزيتـونـة. وهـو ثاني الـرجلين اللذين يشار إليهما بالروح في العلم، والتحقيق في النـظر، والسمـو والاتسـاع في التفكير؛ أولهمـا العـلامة الأستاذ محمد النخلي القيراوني ـ رحمه الله ـ وثانيهما: الأستاذ شيخنا الطاهر بن عاشور.

وكـانا كما يشار إليهما بالصفات التي ذكرناها يشار إليهما بالضلال والبدعة، وما هو أكثر من ذلك لأنهما كان يحبذان آراء الأستاذ محمد عبده في الإصلاح، ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقـرأ عليهمـا، وكـان هذا ممـا استـطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما. وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة، واتصلت بهمـا حتى حصلت على الشهـادة «العـالمية» ووجدت لنفسي الاختيار فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما في حياتي أعظم الأثر. على أن الأستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيداً لاتصالي الوثيق بالأستاذ النخلي»[1].

أمـا الـرافـد السلفي الثـاني الـذي أثر في مؤسس جمعية العلماء فيتمثل في تلك السفرة الطويلة إلى المشرق العربي، والتي أدى فيهـا «فريضة الحج» واجتمع خلالها بعدد كبير من رجـالات الفكـر والإصلاح في العالم العربي من بينهم الشيخ حمدان الونيس، شيخه السابق، والشيخ حسن الهندي العالم

---

(١) البصائر، عدد (١٦) السّنة الأولى.

السلفي المجاور الذي نصحه بوجوب العودة إلى الجزائر لاحتياجها الشديد إلى علمه وفكره، والشيخ (البشير الإبراهيمي) الذي تعرف عليه ابن باديس لأول مرة في حياته في المدينة [النبوية] حيث كان قد هاجر إليها في حدود عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) ومنذ ذلك الحين ارتبط بصداقة متينة كانت خيراً وبركة على الجزائر والحركة الإصلاحية السلفية التي برزت فيما بعد في حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[1] أي أنه هنا في قاعدة السلفية الأولى في الماضي والحاضر ـ في المدينة [النبوية] ـ تم عقد النية والاتفاق على إقامة الحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر بين الشيخين البشير الإبراهيمي، وابن باديس.

مبادىء السلفية وركائز جمعية العلماء:

لعله من الحقائق المقررة أن التشابه ـ بل الاتفاق ـ في الأسس والمبادىء بين حركتين من حركات البعث والإحياء ـ إنما يقوم دليلاً قوياً على تأثر اللاحقة بالسابقة.

---

(١) د. تركي رابح: الأصالة ٢٤.

وقـد ذكرنا في صدر بحثنا خلاصة أهم ركائز دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لهذا الغرض.

وفي هذا المقام نورد أهم الركائز التي قامت عليها الحركة الإصلاحية الجزائرية التي عرفت باسم جمعية العلماء، والتي كان لهـا الفضـل في تحرير الجزائر من الفرنسيين وعودتها إلى الإسلام واللغة العربية.

ومن دراستنـا لجمعية العلماء فكراً وعملاً ـ كما تدل على ذلك مصادرها ـ نستطيع أن نلخص الركائز التي قامت عليها في النقاط التالية:

أولاً: إصلاح عقيدة الجزائريين.

فقـد كانت جمعية العلمـاء تركـز عملها بصفة عامة على مقـاومـة الخـرافات والبدع التي شوهت عقيدة المسلمين[1]،

---

(١) انظر كتاب: الشيخ عبدالحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ٢٧٢/٢٧٣ د. رابح تركي.

وتطهير عقيدتهم من مظاهر الشرك؛ سواء الجليّ منها أو الخفي.

وقد كان لإمام جمعية العلماء الشيخ ابن باديس دروس يمليها على تلامذته في (جامعة قسنطينة) تحت عنوان (العقائد الإسلامية) وكان يتبع في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وصفاته منهج القرآن الكريم في الاستدلال لا منهج علماء الكلام المتأثرين بالأساليب الفلسفية والإغريقية العقلية. أو أساليب الفقهاء الذين يستدلون بكلام أئمتهم أو قدماء أتباعهم بدل الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله[1].

وقد نشرت أجزاء هامة من تلك الدروس بعد وفاة ابن باديس تحت عنوان «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية» وهي تعطينا صورة واضحة عن طريقة جمعية العلماء في إصلاح العقيدة على النهج السلفي. وابن باديس يصف طريقته تلك بأنها «الطريقة المثلى في الاستدلال على وجود الله وصفاته فما يرجع إلى الغيبيات لا [يعرف] إلا بآية

---

(١) السابق ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

قرآنية محكمة»[1].

ويعلق أحد الكتاب الجزائريين على منهج ابن باديس في إصلاح عقيدة الجزائريين فيكشف النقاب عن حقيقة تأثره فيها بطريقة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.. يقول:

هناك ملاحظة ينبغي الإشارة إليها قبل المضي في بيان ملامح فلسفة ابن باديس، وهي أن الإمام عبدالحميد بن باديس عالم مسلم يعمل في الدائرة [الشرعية]... وهو كذلك مصلح سائر على نهج المصلحين السلفيين من أتباع المدرسة الإصلاحية السلفية التي ظهرت في الشرق المسلم في القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) وكانت تنادي بضرورة العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى: الكتاب والسنة بعيداً عن بدع المبتدعين، وخرافات المنحرفين»[2].

وفي رأي ابن باديس ـ وهو رأي الإمام ابن عبدالوهاب ـ أن

---

(١) انظر مقدمة العقائد الإسلامية لابن باديس جمع ونشر محمد صالح رمضان.

(٢) تركي رابح: المرجع السابق ص ٢٠٠.

العقيدة الصحيحة قاعدة الإصلاح في المجتمع، وهو ينادي بأن حالة التدهور العام التي وصل إليها المسلمون في القرون الأخيرة إنما تعود إلى تدهور العقيدة لدى الفرد المسلم وتسلّل الشرك الخفي إليها، وهو يعتبر ذلك «قاعدة الإصلاح» ويقول: «فلنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات»[1].

ثانياً: مقاومة الصوفية المبتدعة:

ترتبط مقاومة الصوفية والمبتدعة بإصلاح العقيدة إرتباطاً وثيقاً، هكذا كان المنهج بالنسبة لحركة الإمام ابن عبدالوهاب أو بالنسبة لحركة جمعية العلماء الجزائريين.

فما نكب الأمة في عقيدتها التي هي مبعث تميُّزها وفخرها على الملل الأخرى إلا هؤلاء المتصوفة وإخوانهم من سائر المبتدعة.

وكما كان لهؤلاء الصوفية والمبتدعة موقف مشين من دعوة

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٢٣.

الإمام محمد بن عبدالوهاب كان لهم ـ كذلك ـ الموقف نفسه من جمعية العلماء الجزائريين. . . بل أنهم ارتكبوا في الجزائر خيانة عظمى أخرى ـ بعد خيانتهم لله ـ هي أنهم والوا فرنسا ووقفوا معها ضد المسلمين الجزائريين دعاة الإصلاح والتحرير. فلا بد أن تأخذ مقاومة هؤلاء قدراً كبيراً من جهود العلماء، وأن تصبح المعركة معهم سافرة واضحة وضوح المعركة مع المستعمر الفرنسي، ويرى الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) الرائد الثاني لجمعية العلماء ورئيسها بعد ابن باديس: أن مقاومة المبتدعة والصوفية ورجال الدين الرسميين المنافقين هي «أول يد بيضاء أسدتها الجمعية للجزائر حين قامت بتحرير العقول من الأوهام والضلالات [والبدع]، وتحرير النفوس من تأليه الأهواء والرجال، فإن تحرير النفوس والعقول هو الأساس لتحرير الأبدان وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلاً عبداً. . . وبذلك التحرير العقلي الذي أساسه ـ توحيد الله ـ تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة والمشارب المتنابذة والنزعات المتضاربة، وبذلك التحرير أيقظت في الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادىء، وبين

الطالح والزائف منها، وبذلك التحرير أراحت الأمة من أصنام كانت تتعبدها باسم الدين أو باسم السياسة[1] .

ويكشف الإبـراهيمي «حقيقة بعض المنافقين والمبتدعة الـذين تستخـدمهم فرنسا لأغراضها، بأسلوب يذكرنا بأسلوب الإمـام محمـد بن عبـدالوهاب. . . فيقول: «في أيام الحملة الكبرى على الحكومة (الفرنسية) ظهر (هؤلاء) بمظهر مناقض للدين، فكشفوا الستر عن حقيقتهم المستورة ووقفوا في صف الحكومة مؤيدين لها، خاذلين لدينهم وللمدافعين عن حريته، مطالبين بتأييد استعباده، عاملين بكل جهدهم على بقائه بيد حكومة مسيحية تخربه بأيديهم، وتشوه حقائقه بألسنتهم، وتلوث بيوته ومنابره بضلالتهم».

«وقـد أخـذوا في الـزمن الأخير ببعض مظاهـر العصـر، وتسلحوا ببعض أسلحته بإملاء من الحكومة للدفاع عن الباطل، فكونوا جمعية، وأنشأوا مجلة، وجهزوا كتيبة من الكتاب ليشترك

---

(١) البشير الإبـراهيمي: عيون البصـائر جـ١ ص ٢٦ ـ ٢٧. نشر دار المعارف بالقاهرة.

عاقلهم وسفيههم في هذه المخـزيات، وبحكم العمومية في الجمعية، والاشتراك في المجلة، بعد ما كانوا يعملون فرادى، فيمتاز البريء منهم عن المجرم، ولو في دائرته الضيقة من أهله وجيرانـه.. دافعنـاهم ـ عنـدما ظهروا بذلك المظهر ـ بالحق فركبـوا رؤوسهم، فتسامحنا قليلاً إبقاء على حرمة «المحراب والمنبر» التي انتهكوا، فشددوا إبقاء على حرمة الخبزة، فكشفنا عن بعض الحقـائق المستورة فلجوا وخاضوا، وثاروا وخاروا، فلمـا عتوا عن أمر ربهم رميناهم بالآبدة... وهي أن الصلاة خلفهم باطلة؛ لأن إمامتهم باطلة... لأنهم جواسيس»[1].

ولم يكن الإمام عبدالحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ أقل حرباً للصوفية والمبتدعة من الشيخ الإبراهيمي؛ بل كان ـ رحمه الله ـ يتهمهم بإفساد الإسلام، وأنهم قد أخذوا أنفسهم بنسك الأعـاجم، واختـرعوا أعمالاً وأوضاعاً من عند أنفسهم، وظنوا أنهم يتقربون إلى الله زلفى على غرار المشركين قبل البعثة النبوية[2].

---

(١) عيون البصائر، ١/١٩٨.

(٢) د. تركي رابح: المرجع السابق ٢١٣.

يقـول ابن باديس: «وكمـا اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها [والصلاة] عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها وحرق البخـور عنـدهـا وصب العطور عليها، فكل هذه الإختراعات فاسدة في نفسها لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان محمد يسعاه وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور»، كما يتهم رجال الطرق الصوفية بأنهم ادعوا لأنفسهم نوعاً من الربوبية حينمـا زعمـوا للعـاملة السـاذجـة بأنهم قادرون على المنـح والعطاء، كما أنهم قادرون على المنع والحرمان، وذلك بقصد استغلالهم وابتزاز أموالهم وصرفهم عن مكافحة الاستعمار الذي يحتـل وطنهم إلى التمسـح بأعتـاب رجال الطرق الصوفية [1] الذين ابتليت بهم الجزائر في هذه الحقبة من أحقابها الطويلة.

---

(١) المكان السابق، وانظر ص ١٨٥، وانظر تفسير ابن باديس للآيات: ﴿ومن أراد الآخرة﴾، ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾، ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾.

ثالثاً: الرجوع إلى القرآن والسنة:

يقول ابن باديس: إن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كانت إلا للقرآن وبالقرآن، وإن أئمة الهدى أنفسهم كانوا يدعون لاتباع الكتاب والسنة فهم دعاة اتِّباع لا ابتداع، وما دعوا إلى (التحزّب) لأنفسهم... كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام دعانا إلى اتباع سبيله في القيام بالشرائع في حياتنا العامة والخاصة، وتلك هي سنته التي كان عليها أهل القرن الأول والثاني والثالث، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم عليه الصلاة والسلام [1].

رابعاً: تحذير الناس من الأحاديث الموضوعة:

دأب مفكروا جمعية العلماء على تفنيد تلك الأحاديث والآثار الشائعة المنكرة والموضوعة التي شوهت جمال الإسلام.

فإن الإمام ابن باديس ـ رحمه الله ـ يكاد لا يذكر عبارة السنة إلا ويحددها بعبارة «الصحيحة الثابتة» وذلك تحذيراً من كل ما

---

(١) انظر تفسير ابن باديس لآية: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾.

روي عن النبي من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ويقول في شرحه للآية ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾: لا يجوز أن نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي من الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم. فإذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل قيام الليل ثم وجدنا حديثاً في فضل قيام الليل يذكر ثواباً عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه [إذا] لم يكن شديداً على وجه الترغيب، ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه وهذا هو معنى قولهم الحديث الضعيف يروى في فضائل الأعمال أي: في ذكر فضائلها المرغبة فيها فقط لا في أصل ثبوتها.

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين [1].

---

(١) الأستاذ محمد خليل: نبذة عن حياة الإمام ابن باديس، مجلة الدعوة السعودية عدد ٦٨٣.

خامساً: محاربة الجمود الفكري الذي نتج عن إقفال باب الاجتهاد، وإحياء [التفقّه في الدين]:

يقول ابن باديس: ـ رحمه الله ـ ذاكراً فضل اثنين من أساتذته [عليه]: «وإني لأذكر للأول (حمدان الونيس) وصية أوصاني بها وعهداً عهد به إليّ، وأذكر أثر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر فقد أوصاني وشدد على أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت، وأذكر للثاني (محمد النخلي) كلمة لا يقل أثرها في حياتي العلمية عن أثر تلك الوصية في حياتي العملية، وذلك أني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ضيِّق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي: (اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة

يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح) فوالله لقد فتح الله بهذه الكلمة القليلة [في] ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها»[1].

سادساً: رفض التوسل والاستغاثة [بالأموات من الأنبياء والأولياء] والاعتماد على النفس في التقرب إلى الله:

فقد كان الشيخ يؤكد في كل دروسه وكتاباته «أنه لا يجوز الاعتماد على غير ما يقوم به الإنسان من عمل صالح، ينتفع به في دنياه، ويتقرب به إلى الله في أخراه.. أما ما يتوسل به الجهلة بحقائق الإسلام، أو يضللهم به المشعوذون فلا عبرة به في نظر الإسلام الصحيح»[2].

تلك هي أهم الركائز التي قامت عليها جمعية العلماء وقد تكون هناك مبادىء أخرى.. لكنها يمكن أن تندرج تحت هذه الركائز، كما أن طريقة عرض الأسس التي قامت عليها دعوة

---

(١) المكان السابق.

(٢) الأستاذ علي مرحوم: لمحات من حياة ابن باديس: الأصالة عدد ٢٤، وعلي مرحوم من تلامذة ابن باديس وأعضاء جمعية العلماء.

جمعية العلماء الجزائريين، قد تختلف من مفكر لآخر، كذلك الأمر بالنسبة لدعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب. . . لكن المضمون في نهاية الأمر متفق ـ تمام الإتفاق ـ في الحركتين.

وعلى سبيل المثال: فإن أحد المفكرين الجزائريين يذهب إلى أنّ دعوة الشيخ ابن باديس، التي هي دعوة الجمعية ركزت على ثلاثة أسس:

١ ـ إصلاح عقلية الجزائريين.

٢ ـ إصلاح عقيدة الجزائريين.

٣ ـ إصلاح أخلاق الجزائريين [١].

لكننا عند التحليل العلمي للمضمون، بل عند قراءتنا لتفاصيل هذه الاصلاحات نجدها لا تخرج عما ذكرناه. . وليس الخلاف إلا في أسلوب العرض.

كما أن من الجلي أن هذه الركائز هي ـ تماماً ـ الركائز

---

(١) د. تركي رابح: ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر، مجلة الأصالة عدد ٢٤.

نفسها التي قامت عليها حركة الإمام محمد بن عبدالوهاب، بل إنني لأرى أن التزام جمعية العلماء بهذه الركائز كان التزاماً يقترب من التزام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويَفضُل التزام مدرسة العروة الوثقى وربما يَفضُل مدرسة المنار ورشيد رضا أيضاً، وليس هنا مجال تفصيل ذلك.

تشابه في الموضوع والمنهج والأسلوب:

وهناك جانب آخر ـ إلى جانب الاتفاق في الركائز ـ يدلنا أيضاً على مدى توافق الحركتين، وهو جانب الاتفاق في الكتابة موضوعاً ومنهجاً وأسلوباً.

ولأن هذا المقام قد لا يتسع لنقل نصوص وفقرات كاملة من كتابات الشيخ ابن عبدالوهاب وكتابات زعماء جمعية العلماء الجزائريين كالشيخ عبدالحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فنحن ـ إلى جانب الركائز التي ذكرناها والتي توضح الاتفاق التام بين الدعوتين ـ نشير إلى أنه من دواعي التأكيد على تأثر جمعية العلماء الجزائريين بدعوة الشيخ ابن عبدالوهاب أن كثيراً من كتابات الشيخ ابن باديس والشيخ

الإبـراهيمي تبـدو للقـارىء وكأنها ترجمة أمينة لبعض كتابات الشيخ ابن عبدالوهاب وتلامذته.

أما اتفاق الكتابات في الخصائص والسمات؛ فهي حقيقة لا شك فيهـا: فإن القـوة والجرأة والروح الإيمانية الواثقة غير الهيابـة التي تبـدو في كتـابات الإمام محمد بن عبدالوهاب، ولاسيما في رسائله وخطبه نجدها ـ كذلك ـ في كتابات مدرسة جمعية العلماء الجزائريين.

وإن الاعتماد على الدليل القوي المباشر الواضح المستقى من كتـاب الله وسنـة نبيه وسلوك الأئمـة، نجده خاصة تنتظم كتـابـات الإمام ابن عبدالوهاب وجمعية العلماء الجزائريين، ممـثـلة في رائـديهـا: «عـبـدالـحميد بن باديس» و«البشير الإبـراهيمي»؛ بل إن الموضوعات تبدو وكأنها تدور في فلك واحد وتعالج أوضاعاً واحدة مع أن الظروف الزمانية كانت مختلفة.

وقد يرد على الخاطر أن «الأعداء» كانوا مختلفين ـ أيضاً ـ ولاسيما أنَّ الاستعمار الفرنسي كان مسيطراً على الجزائر،

والمتوقع أن تحتل مقاومته درجة الاهتمام الأولى. . لكن الحقيقة أن مدرسة جمعية العلماء لم تقع ـ إلى حد كبير ـ في هذا الخطأ الحضاري، بل إنها أدركت أن الاستعمار إنما هو نتيجة وليس العلة أو السبب، وإنما السبب هو ما أصاب كيان المسلم في عقيدته وفكره، والمنهج هو علاج «العلة» أولاً. . . ومن هنا صرفت أكثر جهودها في مقاومة «البدع والخرافات» وفي إحياء دين الأمة ولغتها، دون أن تغفل عن مقاومة الاستعمار كذلك.

ويضاف إلى هذه الخصائص ـ سمة أخرى واضحة في كتابات الإمام محمد بن عبدالوهاب، ومدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. . . هذه السمة نستطيع أن نطلق عليها: عدم المداراة أو التكلف، بل المواجهة الصريحة بالألفاظ القوية التي لا تحتمل تأويلاً ولا لبساً. . . حتى وإن أغضب ذلك بعض الناس، الذين يريدون المداراة والتحايل منهجاً للدعوة إلى الله.

ونورد فيما يلي بعض نصوص من كتابة الشيخ ابن

عبدالوهاب، وكتابة مدرسة جمعية العلماء الجزائريين، لنستدلَّ بمقارنتها على صدق ما استنتجناه من اتفاق بين الحركتين في المنهج والموضوع والأسلوب.

يقول الإمام محمد بن عبدالوهاب: «ولست ولله الحمد أذهب إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم؛ بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وإلى سنة رسوله التي أوصى بها أول أمته وآخرهم (. . .) وغير خاف ما أحدث الناس في دينهم من الحوادث وما خالفوا فيه طريق سلفهم، ووجدت المتأخرين أكثرهم قد غير وبدل» [1].

وفي رسالته إلى محمد بن فارس يقول: «اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة: الأول الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له. والثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. والثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم. الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي أكمل من هديه

---

(١) من رسالته السابعة والثلاثين: الرسائل الشخصية، القسم الخامس.

أو أن حكم غيره أحسن من حكمه. الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به رسول الله. السادس: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه. السابع: السحر ومنه الصرف والعطف. الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين. التاسع: من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباعه، وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى. العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به»[1].

ومن رسالته إلى أهل المغرب... بعد أن ذكّرهم بعض آيات القرآن الآمرة بوجوب اتباع سبيل الله وما أنزل على رسوله ﷺ.

«إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها الإشراك بالله والتوجه إلى الموتىٰ وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات، وكذلك التقرب إليهم

---

(١) من رسالته الثانية والثلاثين: المرجع السابق.

بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصح إلا لله. وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً»[1].

ونكتفي بهذه النقول من كلام الإمام محمد بن عبدالوهاب محيلين القارىء إلى تراثه الضخم، ونذهب لنقتبس بعض النقول ـ للمقارنة ـ من تراث الشيخ عبدالحميد بن باديس إمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

يقول الشيخ ابن باديس عند شرحه[2] لقوله تعالى: ﴿**ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا**﴾ الآيات: كما أن علينا أن نتبع سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام التي جاء بها من عند الله تعالى وهي الإسلام؛ كذلك علينا أن نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علماً وعملاً

---

(١) من رسالته السابعة والعشرين: المرجع السابق.

(٢) من دروس ألقاها في الجامع الأخضر بقسنطينة بالجزائر.

في أبـواب العبـادات وأحكـام المعـاملات وفي تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة وهذه هي سنته التي كان عليها، وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرهـا بلسان المعصوم. وكما أن من عدل عن الإسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر، ومن لم يتخذ مع الـرسـول سبيل الإسـلام ينـدم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه؛ كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة إذ كل منهما قد ظلم نفسه في سبيل نجاته فالآية وإن كانت في الكـافـر والمشـرك فهي تتناول بطريقة الاعتبار أهل الأهواء والبدع.

ويقـول عنـد شرحـه لآية: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن**﴾، (سورة الإسراء آية: ١٩) يقول: من الناس من يخترع أعمالاً من عند نفسه ويتقرب بها إلى الله مثلما اخترع المشركون عبادة الأوثان بدعائها والذبح عليها والخضوع لديها وانتظار قضاء الحوائج منها، وهم يعلمون أنها مخلوقة لله مملوكة له، وإنما يعبدونها كما قالوا لتقربهم إلى الله زلفى، وكما اخترع

طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب توابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور.

ويقول عند شرحه لقوله تعالى: ﴿**ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**﴾ (سورة الإسراء آية: ٣٦).

يقول: إن أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي ﷺ الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة عقيدتهم الدينية وأدلة تلك العقيدة من القرآن العظيم. إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل جوانب عقيدته الدينية على علم. ولن يجد العامي أدلة عقيدته سهلة قريبة إلا في الوحي فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم المسلمين عقيدتهم

إليه. أما الإعراض عن أدلة القرآن والسنة والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية؛ فإنه من الهجر للوحي وتصعيب طريق العلم إلى عبادة الله وهم في أشد الحاجة إليه. وقد كان من نتيجة هذا ما نراه في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغي لأهل العلم أيضاً ـ إذا أفتوا أو أرشدوا ـ أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته ويعرفوهم منزلته ويجعلوه منهم دائماً على ذكر وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس، فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إن كنتم للخير تريدون [1].

ومن الغريب ـ إلى جانب هذه النصوص التي تبين الاتفاق في الموضوع والمنهج والأسلوب بين الحركتين ـ أن أول جريدة أنشأها ابن باديس كان اسمها (المنتقد) وكانت جريدة تكاد تكون متخصصة في (انتقاد) الصوفية، وقد أوقفتها فرنسا عام

---

(١) د. عمار الطالبي: آثار ابن باديس ٢٠١.

١٩٢٥م بعد ثمانية عشر عدداً من صدورها، فجعلتها جريدة «الشهاب» فلما قامت الجمعية رسمياً سنة (١٩٣١م) (١٣٤٩هـ) كانت أول جريدة أصدرتها هي «السنة المحمدية» سنة ١٩٣٣م (١٣٥١هـ) ثم تلتها جريدة «الشريعة المطهرة» بعد أن أغلقت فرنسا الجريدة الأولى، ثم «الصراط السوي» ثم «البصائر».

أفلا تؤكد هذه الجرائد والمجلات ـ حتى من مجرد عناوينها ـ ذلك الاتفاق في «الموضوع» على الأقل؟.

أما من ناحية المنهج والأسلوب «فنستطيع أن نلخصه في جملة واحدة: إنه «المنهج القرآني».

فإن ابن باديس كان على منهج الإمام محمد بن عبدالوهاب، يؤمن إيماناً لا حدود له بدور القرآن الكريم في تكوين الجيل المنشود على غرار الجيل الذي كونه القرآن في العصور الأولى للإسلام، يقول ابن باديس في مجلة الشهاب: «فإننا نربي ـ والحمد لله ـ تلامذتنا على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم، وفي كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن

يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها. وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها.

أما كيفية تثقيف هذا الجيل القائد فيشرحها الشيخ الإبراهيمي بقوله: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس ـ في اجتماعنا بالمدينة [النبوية] ـ في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا [1].

وبعد:

فإني أعتقد أني قدمت بين يدي «قضية عادلة» أدلة كثيرة، قد تكون في غنى عنها لكني قدمتها خضوعاً للمنهج العلمي الذي نتعامل به مع الآخرين.

أما يقيني ـ الذي أؤمن به ـ فهو أن الحضارة المسلمة كلٌّ

---

(١) د. تركي رابح: الأصالة ٢٤.

لا يتجزأ، حتى وإن اختلفت ألوانها وظلالها. وبالتالي.. فإن موجاتها الموجبة والسالبة تتحرك وتتفاعل متبادلة التأثير، متخطية ـ في الوقت نفسه ـ كل الحواجز السياسية وكل ضغوط الواقع، وكل الأسوار المصطنعة الطارئة.

إنها حضارة «واحدة» تستمد من عقيدة «التوحيد» كيانها الواحد المتعدد العطاء.. وهذا ما أؤمن به!!.

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حينٍ بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد.